المواضيع المشتركة بين غلاطية ورومانيّين: تواصل أم تطوّر؟

الخوري نعمةالله الخوري

كتب بولس رسالته إلى أهل غلاطية والرسالة إلى الرومانيّين أثناء الرحلة التبشيريّة الثالثة التي جرت أحداثها بين العامين ٥٣ و٥٧؛ في تلك الحقبة، كانت الكنيسة الأولى تعاني من الصراعات داخل الجماعات المسيحيّة بين المتهوّدين الذين يريدون أن يفرضوا شريعة موسى على المرتدين إلى الوثنيّة وبين الوثنيّين الذين يطلبون الانضمام إلى الكنيسة دون المرور بالشريعة اليهوديّة. دافع بولس بشدّة عن حريّة الإنجيل وأعلن أنّ الوثنيّين يستطيعون أن ينالوا الخلاص دون المرور بأعمال الشريعة الموسويّة.

سنستعرض بعض المواضيع المشتركة بين الرسالة إلى غلاطية والرسالة إلى الرومانيّين؛ ثمّ سنعالج تعليم الرسول حول موضوع الشريعة كما عرضه في الرسالتين لنستطيع الإجابة عن السؤال التالي: هل يوجد تواصل بين غلاطية ورومانيّين أم هناك تطوّر بين الرسالتين؟

أوّلاً: المواضيع المشتركة بين غلاطية والرومانيّين

بما أنّ الرسول كتب الرسالة إلى الرومانيّين بعد أن كتب الرسالة إلى غلاطية بفترة زمنيّة لا تتجاوز الثلاث سنوات، فمن الطبيعي أن نجد تقارباً واضحاً بين هاتين الرسالتين، خاصّة وأنّهما تعالجان كيفيّة تساكن المسيحيّين الآتين من اليهوديّة مع المسيحيّين الآتين من الوثنيّة؛ هذه أهمّ المواضيع المشتركة بين الرسالتين:

١- يؤكّد بولس في غلاطية كما في رومانيّين أنّ اليهود والوثنيّين كانوا تحت سلطة الخطيئة قبل أن يرتدّوا إلى الإيمان؛ وبالفعل يعدّد بولس في غلاطية أعمال الجسد، وهي الدعارة والزنى والفجور وعبادة الأوثان وغيرها (غل ٥:١٩-٢١)، ويعتبر الرسول أنّ الذين يعملون هذه الأعمال لن يرثوا ملكوت الله.

في الرسالة إلى الرومانيّين، يتوسّع بولس في عرض غضب الله على كفر وظلم جميع الناس سواء أكانوا يهوداً أم وثنيّين؛ إنّهم يعبدون الأوثان ويعيشون في الدعارة والعلاقات الجنسيّة الشاذّة فامتلأوا من الظلم والطمع والشرّ وغيرها (روم ١:١٨-٣٢).

٢- يعتبر بولس في كلتا الرسالتين أنّه لا توجد وسيلة لنيل التبرير إلاّ المرور بالإيمان، وهذا يعني أنّ الشريعة ليست وسيلة لنيل الخلاص. يقول الرسول إلى الغلاطيين إنّ الإنسان لا يتبرّر بأعمال الشريعة بل بالإيمان (غل ٢:١٦)؛ ثمّ يستفيض في شرح هذا الأمر في رومانيّين (٣:١٩-٣١)، وهكذا تزول الفروقات بين اليهودي والوثني: كان اليهودي يظن أنّ الشريعة يمكنها أن تمنحه التبرير، في حين أنّ الوثني الذي لا يعرف الشريعة سيظلّ بعيداً عن الله؛ يقول بولس إنّ هذا الأمر غير صحيح؛ فالشريعة ليست ضروريّة لنيل التبرير؛ وحده الإيمان يمنح الخلاص لليهود والوثنيّين على حد سواء.

٣- أراد بولس أن يستشهد بالكتاب المقدّس ليبرهن نظريّته التي تؤكّد التبرير بالإيمان وليس بالأعمال، فوجد أنّ ابراهيم آمن بالله فحُسبَ له إيمانه براً (تك ١٥:٦): لم يبرّر الله ابراهيم لأجل إيمانه بل لأجل أعماله. نجد هذه العودة إلى وجه ابراهيم في الرسالة إلى غلاطية (٣:٦-٩) وفي الرسالة إلى الرومانيّين (٤:١-٢٥).

٤- شرح بولس كيفيّة التصرّف المسيحي المستقيم في الرسالة إلى غلاطية (٥:١٣-١٥) واستشهد بسفر اللاويين الذي يعرض الوصيّة القائلة: «أحبب قريبك مثل نفسك» (لا ١٩:١٨). في الرسالة إلى الرومانيّين، استشهد بولس بنفس النص المأخوذ من سفر اللاويين حين كتب عن الحب المتبادل بين المؤمنين (روم ١٣:٨-١٠)؛ غير أنّ بولس أضاف في رسالته إلى الرومانيّين بعض الوصايا الأخرى التي أغفل ذكرها في غلاطية وهي: لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشته.

استعرضنا بطريقة عابرة وسريعة النصوص المتشابهة بين غلاطية ورومانيّين، دون أن نتمكّن من الإشارة إلى مجمل المواضيع المشتركة نظراً لوفرتها وتشعّبها. سنكتفي بالتعمّق في دراسة دور الشريعة في حياة المؤمن؛ إنّ السؤال المطروح هو التالي: هل ورد تعليم بولس حول الشريعة بطريقة متماثلة بين الرسالتين أم أنّ الرسول أضاف في رومانيّين أموراً غير موجودة في غلاطية؟ بعبارة أخرى نتساءل: هل هناك تواصل في الرسالتين أم هناك تطوّر؟ لكي نتمكّن من الإجابة عن هذه التساؤلات، علينا أن نستعرض مفهوم الشريعة كما ورد في كلتا الرسالتين.

ثانياً: تعليم بولس حول الشريعة في الرسالة إلى غلاطية

كان بولس قاسياً في حكمه على الشريعة حين كتب رسالته إلى أهل غلاطية، فهو يعتبر أنّ للشريعة طابعاً عابراً وهي ليست وسيلة حقيقيّة لنيل التبرير. ميّز بولس، في تاريخ الخلاص، بين الوعد لإبراهيم وبين الشريعة التي أُعطِيَت لموسى (غل ٣:١٥-٢٠)؛ وعد الله أن يعطي ابراهيم نسلاً (أي المسيح)، ويبقى وعد الله ثابتاً وهو لا يتغيّر، لذلك لا تستطيع الشريعة التي جاءت بعد أربعمئة وثلاثين سنة أن تُبطل وعد الله؛ يستند بولس إلى العرف البشري الذي يؤكّد أنّ وصيّة صحيحة أثبتها إنسان لا يستطيع أحد أن يبطلها أو يزيد عليها (غل ٣:١٥). قبل مجيء المسيح، لعبت الشريعة دور المربّي، فهي حارسة سجن وزمنها محدّد بأن توجّه الناس إلى المسيح، فبعدما جاء المسيح لم يعد للشريعة أيّ دور (غل ٣:٢٤-٢٦).

إنّ أهل غلاطية الذين ارتدّوا إلى الإيمان من الوثنيّة أصبحوا يعرفون أنّ الشريعة هي شيء لا أساس له أخذوه من العالم اليهودي، فالإنسان يستطيع أن يصير مسيحيّاً دون المرور بالشريعة اليهوديّة التي تأمر بالختان.

ثالثاً: بولس والشريعة في الرسالة إلى الرومانيّين

كما تهجّم بولس على الشريعة في الرسالة إلى غلاطية، كذلك اتّخذ نفس الموقف منها في الرسالة، إلى أهل روما، فأعلن بوضوح أن لا أحد يتبرّر أمام الله بأعمال الشريعة بل بالإيمان (روم ٣:٢٠). إنّ الشريعة مرتبطة بالخطيئة، فحيث لا تكون شريعة لا تُوجد معصية (روم ٤:١٥؛ ٥:١٣)، ولأنّ المؤمن بيسوع خرج عن سلطة الخطيئة فلم يعد تحت تأثير الشريعة (روم ٧:٦). في هذا الإطار نلاحظ أنّ بولس يتكلّم عن شريعة الخطيئة (روم ٧:٢٣) وعن شريعة الخطيئة والموت (روم ٨:٢).

هنا نتساءل: هل أراد بولس أن يرسم صورة مظلمة عن الشريعة في رسالته إلى أهل روما؟ من الواضح أنّ الرسول، بعد أن تهجّم على الشريعة، طرح سؤالاً: هل نبطل الشريعة (روم ٣:٣١)؟ ثمّ أجاب فوراً عن سؤاله قائلاً: لا، بل نُثبت الشريعة؛ هذا يعني أنّ للشريعة دوراً إيجابيّاً في تعليم الرسول، لذلك نراه يقول في رسالته إنّ الشريعة مقدّسة والوصيّة أيضاً (روم ٧:١٢)؛ إنّ اليهود الذين يخضعون لنظام الشريعة سيُدانون بحسب معايير تتوافق مع الشريعة (روم ٢:١٢)، وهذا دليل أنّ الشريعة نافعة في تعليم الرسول.

رابعاً: من الموقف التجادلي إلى العرض العقائدي

بعد هذا العرض لمفهوم الشريعة في الرسالتين المذكورتين، لاحظنا تناقضاً واضحاً في موقف الرسول من الشريعة؛ كان حكم بولس على الشريعة قاسياً في الرسالة إلى غلاطية، والسبب يعود إلى أنّ الرسول كتب هذه الرسالة في أجواء النزاع بينه وبين المتهوّدين الذين يتعرّضون لسلطته في غلاطية؛ وبالفعل اعترض بعض المسؤولين على مواقف بولس المتحرّرة تجاه الوثنيّين، وشعروا أنّ بولس لا يشدّد على دور الشريعة الموسويّة لنيل الخلاص. جاء بعض المُرسلين إلى غلاطية وحاولوا أن يبعدوا أهل تلك المنطقة عن تعليم بولس، فعرضوا على الغلاطيّين العودة إلى شريعة موسى؛ هذه الدعاية المتهوّدة شكّلت خطراً على إيمان الغلاطيين، فانبرى بولس يكتب رسالته إلى غلاطية في حمّى الجدالات بينه وبين المتهوّدين، فظهرت النبرة القاسية في رسالته. بعد أن انتهت الأزمة في غلاطية وهدأت الجدالات، استعاد بولس المواضيع الأساسيّة التي عالجها في الرسالة إلى

الرومانيّين ما حسبه ناقصاً في الرسالة إلى غلاطية. هكذا نستطيع أن نفهم الموقف الإيجابي من الشعب اليهودي في الرسالة إلى الرومانيّين: ذكّر بولس بامتيازات الشعب اليهودي (روم ٩:٤ي)، وعالج موضوع دعوتهم الدينيّة، وأكّد حصول شعب الله المختار على الخلاص النهائي (روم ١١:٢٨-٣٢).

خاتمة

هناك تواصل في التعليم بين الرسالة إلى غلاطية وبين تلك التي إلى الرومانيّين، ولكنّ الأهم من ذلك وجود تطوّر في تفكير الرسول، وهذا التطوّر ناتج عن الظروف الجديدة التي يواجهها الرسول في حياته. كانت حياة الرسول صعبة ومضطربة ولاقى معارضة شديدة في الكنائس التي أسّسها، لذلك يمكننا أن نفهم أنّ مواقف بولس المختلفة هي وليدة الظروف الصعبة التي كانت تمرّ بها الكنائس البولسيّة. كتب بولس رسالته إلى أهل روما في أجواء هادئة مستعيداً الأفكار الأساسيّة التي عالجها بطريقة عابرة في رسالته إلى أهل غلاطية، فتوسّع فيها وأضاف ما حسبه ناقصاً. لذلك نجد مقاطع عديدة في الرسالة إلى غلاطية والتي لا يمكن فهمها دون العودة إلى التوسّعات المقابلة لها في الرسالة إلى الرومانيّين: التبرير بالإيمان (غل ٢:١٦ي؛ رج روم ٣:١٩-٣١)، ايمان ابراهيم (غل ٣:٦؛ رج روم ٤). لا نستطيع أن نعزل الرسائل البولسيّة عن المحيط والأجواء التي نشأت فيها، كما أنّ خبرة الرسول الطويلة جعلته يفهم شيئاً فشيئاً معنى موت المسيح على الصليب، فمن الواضح أن نلاحظ تطوّراً في تعليم الرسول الذي ورد في رسائله.